

الفصل الخامس عشر: مُعْجَزَةُ الْخُبْزِ وَالسَّمَكِ الْأُولَى



١- الاستقبال

تَرِدُ مُعْجَزَةُ تَكْثِيرِ الْخُبْزِ وَالسَّمَكِ مَرَّتَيْنِ: هُنَا (مَتَّى ١٤: ١٣-٢١) إِذْ كَانَ الْأَكِلُونَ نَحْوَ خَمْسَةِ آلافِ رَجُلٍ، وَفِي مَتَّى ١٥: ٣٢-٣٩ إِذْ كَانَ عَدَدُهُمْ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلافِ رَجُلٍ. تَرِدُ فِي تَكْثِيرِ الْخُبْزِ، وَفِي الْعِشَاءِ السَّرِيِّ، وَفِي كَسْرِ التَّلَامِيذِ لِلْخُبْزِ بَعْدَ الْقِيَامَةِ، الْكَلِمَاتُ وَالْحَرَكَاتُ وَالتَّعَابِيرُ نَفْسُهَا: أَخَذَ، نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، بَارَكَ، كَسَرَ وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ. هَذَا مَا يَجْعَلُنَا نُعْطِي لِهَذِهِ الْمُعْجَزَةِ مَعْنَى إِفْخَارِسْتِيَا بَعِيدَ الْمَدَى.

هل سَبَقَ لَكَ أَنْ اخْتَبَرْتَ أَنَّ اللَّهَ يَمَلَأُ، بِطَرِيقَةٍ عَجَائِبِيَّةٍ، نَقْصًا مَا كُنْتَ تُعَانِيهِ فِي حَيَاتِكَ؟ هل كُنْتَ أَنْتِ، ذَاتَ مَرَّةٍ، يَدًا بِيضَاءٍ أَوْصَلَتْ الطَّعَامَ إِلَى بُيُوتِ الْفُقَرَاءِ دُونَ انْتِظَارِ مُكَافَأَةٍ مِنْهُمْ؟ عِنْدَمَا تَذْهَبُ إِلَى الْقُدَّاسِ، مَا الْإِنْطِبَاعُ الَّذِي تَأْخُذُهُ؟ هل تَنْسَجِمُ فِي الصَّلَاةِ وَتَتَغَدَّى مِنَ الْعِظَةِ أَمْ تَبْقَى هَامِشِيًّا فِي إِحْسَاسِكَ وَنَظَرَاتِكَ، فَلَا تَسْتَطِيعُ التَّرْكِيزَ وَالْعَوَظَ فِي الْعُمُقِ؟ هَذَا مَا سَنُحَاوِلُ شَرْحَهُ فِي لِقَاءِ الْيَوْمِ: مَعْنَى الْمُعْجَزَةِ وَأَهْمِيَّتِهِ سِرِّ الْإِفْخَارِسْتِيَا فِي الْحَيَاةِ الْمَسِيحِيَّةِ.

٢- قراءة الإنجيل وتفسيره

معجزة الخبز والسمك الأولى (متى ١٤: ١٣-٢١)

^{١٣} فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعَ، انصَرَفَ مِنْ هُنَاكَ فِي سَفِينَةٍ إِلَى مَكَانٍ قَفْرٍ يَعْتَزِلُ فِيهِ. فَعَرَفَ الْجُمُوعُ ذَلِكَ فَتَبِعُوهُ مِنَ الْمُدُنِ سِيرًا عَلَى الْأَقْدَامِ. ^{١٤} فَلَمَّا نَزَلَ إِلَى الْبَرِّ رَأَى جَمْعًا كَثِيرًا، فَأَخَذَتْهُ الشَّفَقَةُ عَلَيْهِمْ، فَسَفَى مَرَضَاهُمْ. ^{١٥} وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ، دَنَا إِلَيْهِ تَلَامِيذُهُ وَقَالُوا لَهُ: الْمَكَانُ قَفْرٌ وَقَدْ فَاتَ الْوَقْتُ، فَاصْرِفِ الْجُمُوعَ لِيَذْهَبُوا إِلَى الْقُرَى فَيَشْتَرُوا لَهُمْ طَعَامًا. ^{١٦} فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: لَا حَاجَةَ بِهِمْ إِلَى الذَّهَابِ. أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ مَا يَأْكُلُونَ. ^{١٧} فَقَالُوا لَهُ: لَيْسَ عِنْدَنَا هَهُنَا

عَيْرُ حَمْسَةِ أَرْغِفَةٍ وَسَمَكَيْنِ. ١٨ فقال: عليّ بها. ١٩ ثُمَّ أَمَرَ الْجُمُوعَ بِالْقُعُودِ عَلَى الْعُشْبِ، وَأَخَذَ الْأَرْغِفَةَ الْحَمْسَةَ وَالسَّمَكَيْنِ، وَرَفَعَ عَيْنَيْهِ نَحْوَ السَّمَاءِ، وَبَارَكَ وَكَسَرَ الْأَرْغِفَةَ، وَنَاوَلَهَا تَلَامِيذَهُ، وَالتَّلَامِيذُ نَاوَلُوهَا الْجُمُوعَ. ٢٠ فَأَكَلُوا كُلُّهُمْ حَتَّى شَبِعُوا، وَرَفَعُوا مَا فَضَلَ مِنَ الْكَسْرِ: اثْنَتِي عَشْرَةَ قُفَّةً مُمْتَلِئَةً. ٢١ وَكَانَ الْأَكْلُونَ حَمْسَةَ آلَافٍ رَجُلٍ، مَا عَدَا النِّسَاءَ وَالْأَوْلَادَ.

٢. ١- الشرح

يَذَكُرُ الْإِنْجِيلِيُّ مَتَّى مُعْجَزَتَيْنِ لِتَكْثِيرِ الْخُبْزِ وَالسَّمَكِ، الْأُولَى (١٤: ١٣-٢١) تَتِمُّ فِي إِطَارِ يَهُودِيٍّ يَظْهَرُ مِنْ خِلَالِ الْأَعْدَادِ الْمُسْتَعْمَلَةِ: حَمْسَةُ أَرْغِفَةٍ، الْأَكْلُونَ حَمْسَةَ آلَافٍ، الْقَفْفُ الْفَاضِلَةُ اثْنَتَا عَشْرَةَ؛ فَالْعَدَدُ حَمْسَةُ يُشِيرُ إِلَى كُتُبِ الشَّرِيعَةِ الْحَمْسَةِ، وَالْعَدَدُ اثْنَا عَشَرَ إِلَى أَسْبَابِ إِسْرَائِيلَ وَإِلَى الرُّسُلِ. أَمَّا الْمُعْجِزَةُ الثَّانِيَةُ (١٥: ٣٢-٣٩) فَتَتِمُّ فِي غَطَارٍ؟ وَثَنِي يَظْهَرُ أَيْضًا مِنْ خِلَالِ الْعَدَدِ: سَبْعَةُ أَرْغِفَةٍ وَسَبْعُ سِلَالٍ، عَدَدٌ يَرْمِزُ إِلَى الْكَمَالِ، وَالْأَكْلُونَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ عَدَدٌ يَرْمِزُ إِلَى أَقْطَارِ الْكَوْنِ الْأَرْبَعَةِ، شِمَالٍ جَنُوبٍ شَرْقٍ وَغَرْبٍ.

تَدْخُلُ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ فِي إِطَارِ الْمُعْجِزَاتِ الَّتِي تُبَيِّنُ وَفْرَةَ عَطَاءِ اللَّهِ لِلبَشَرِيَّةِ. فَهُوَ إِلَهُ الْمَلَأَ الَّذِي يَمَلَأُ فِرَاعَ حَيَاتِنَا. تَبَرُّزُ أَهْمِيَّةِ هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ خِلَالِ مَعَانِيهِ الرَّمْزِيَّةِ وَتَفَاعُلَاتِهِ عَلَى الصَّعِيدِ الْمَسِيحَانِيِّ، الْكَنْسِيِّ وَالْأَسْرَارِيِّ.

فَعَلَى الصَّعِيدِ الْمَسِيحَانِيِّ، يَظْهَرُ يَسُوعُ كِرَاعٌ يَقُودُ قَطِيعَهُ نَحْوَ الْمَرَاعِي الْخَصْبَةِ (لَا حِظَّ كَلِمَةِ «الْعُشْبِ» آ. ١٩). هُوَ الَّذِي قَالَ «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ الْمُتَعَبِينَ وَالْمُثْقَلِينَ بِالْأَهْمَالِ وَأَنَا أُرِيحُكُمْ» (١١: ٢٨)، هَا هُوَ الْآنَ يُطْعِمُ الْجِيَاعَ مِنْ وَفْرَةِ بَرَكَاتِهِ. خَلْقِيَّةُ هَذِهِ الْمُعْجِزَةُ هِيَ إِشْبَاعُ اللَّهِ لِلشَّعْبِ فِي الصَّحْرَاءِ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى مَعَ مُوسَى. وَهَدَفُ الْمُعْجِزَةِ لَيْسَ إِظْهَارَ قُدْرَةِ اللَّهِ بِقَدْرِ مَا هُوَ تَبْيَانُ رَحْمَتِهِ الْمَلَكُوسَةِ تَجَاهَ مَنْ يَشْعُرُ بِضَيْقٍ، بِجُوعٍ أَوْ بَعُوزٍ. لَقَدْ «أَشْفَقَ» يَسُوعُ عَلَى الْجُمُوعِ فَشَفَى مَرْضَاهُمْ (آ. ١٤) وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ الْمَسِيحُ الْمُنْتَظَرُ.

يَظْهَرُ الْبُعْدُ الْكَنْسِيُّ مِنْ خِلَالِ دَوْرِ التَّلَامِيذِ الَّذِينَ أَشْرَكَهُمْ يَسُوعُ فِي تَوْزِيْعِ الْخُبْزِ إِذْ نَاوَلَهُمْ أَوْلًا وَمِنْ ثَمَّ نَاوَلُوا الْجُمُوعَ (آ. ١٩. أ). فَيَقُومُ دَوْرُ الْكَنِيسَةِ فِي مُتَابَعَةِ تَكْثِيرِ تَوْزِيْعِ بَرَكَاتِ الرَّبِّ، شَرَحَ الْإِنْجِيلِ وَتَوْزِيْعِ الْأَسْرَارِ عَلَى شَعْبِ اللَّهِ كَافَّةً. وَلَيْسَ طَلَبُ يَسُوعِ الْاسْتِفْزَازِيَّ هُمْ «أَعْطَوْهُمْ أَنْتُمْ مَا يَأْكُلُونَ» (آ. ١٦). إِلَّا تَحْفِيزًا لَهُمْ لِلاتِّقَالَ مِنْ إِيْمَانٍ «قَلِيلٍ» ضَعِيفٍ إِلَى إِيْمَانٍ أَعْمَقٍ وَأَبْتَبَ بِالْعَمَانُوتِيلِ الْحَاضِرِ مَعَهُمْ دَائِمًا. أَمَّا الْإِشَارَةُ لِحُضُورِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ فِي نَهَايَةِ النَّصِّ إِلَى جَانِبِ الرَّجَالِ فَتَلَمَّحٌ

إلى البُعدِ العائليِّ العِلْمانيِّ المكوّنِ للكنيسةِ إلى جانبِ الإكليريكيِّ الكهنوتيِّ المُشارِ إليه بالتلاميذ.

هذا البُعدُ الكَنَسِيّ هو مُرتَبَطٌ ببُعدِ إِفخارستيِّ وِاضِحٍ مِنْ خِلالِ أفعالِ يَسوعَ الليتورجِيَّةِ المَذكُورَةِ «أَخَذَ الأَرغَفَةَ، نَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، بَارَكَ، كَسَرَ وَأَعْطَى» (آ. ١٩). قد تَكُونُ حَرَكََةُ البرَكَةِ هِيَ الصَّلَاةُ اليَهُودِيَّةُ الَّتِي تُقَالُ عَادَةً قَبْلَ الطَّعَامِ، لَكِنَّ الطَّابِعَ الإِفخارستيِّ يَظْهَرُ أَيْضًا مِنْ خِلالِ التَّلْمِيحِ إِلَى وَقْتِ النَّهَارِ «وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ» (آ. ١٥) مُحَضَّرًا بِذَلِكَ العِشَاءِ الأَخِيرِ بَيْنَ يَسوعَ وَتلاميذِهِ.

٢.٢ - التَّوَيْن

لقد طَلَبَ يَسوعُ الحُبُزَاتِ وَالسَّمَكِ الَّتِي كَانَتْ مَعَ التَّلَامِيذِ وَكَثَّرَهَا وَأَطْعَمَ بِهَا الجُمُوعَ. إِنَّ تَقْدِيمَهَا لِلرَّبِّ جَعَلَهَا تَقْيِضُ عَطَايَا وَيَفْضُلٌ عَنْهَا. قد نَعْتَبِرُ أَنَّ مَا أَعَدَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ مَوَاهِبِ مَادِيَّةٍ وَرُوحِيَّةٍ وَمَعنَوِيَّةٍ هُوَ قَلِيلٌ جَدًّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُتَطَلِّبَاتِ المُجْتَمَعِ وَحَاجَاتِ الأَشْخَاصِ المُحِيطِينَ بِنَا. لَكِنَّ خِبْرَةَ التَّلَامِيذِ تُشجِّعُنَا عَلَى عَدَمِ الاحتِفاظِ بِهَا، وَتَدْعُونَا لِتَقْدِيمِهَا لِلرَّبِّ، فَالرَّبُّ كَفِيلٌ بِإِفْاصَتِهَا بِرَكَاتٍ عَلَى الجَمِيعِ. فَهَنَّاكَ صَلَاةً بِيَزْ نَظِيَّةً تَقُولُ: «مَا لَكَ، مَّا هُوَ لَكَ، نُقْرَبُهُ لَكَ، عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، وَمِنْ أَجْلِ كُلِّ شَيْءٍ».

إِنَّ بَقَاءَ الاثْنَيْ عَشْرَةَ قَفَّةً، بَعْدَ التَّلَامِيذِ، لِكُلِّ وَاحِدٍ قَفَّةً، يَهْدُفُ إِلَى مُتَابَعَةِ مَا قَامَ بِهِ يَسوعَ. فَعَلَى كُلِّ تَلْمِيذٍ أَنْ يُكْمِلَ لِاحْتِقَا عَمَلِ يَسوعَ فِي شَرْحِ كَلِمَةِ اللهِ وَافْتِقَادِ المُحْتَاجِينَ وَتَأْسِيسِ الكِنَائِسِ وَالقيامِ بِالاحتِفالاتِ الإِفخارستيَّةِ. مِنْهَا سَيُطْعَمُونَ المَسِيحِيِّينَ، وَالأَكِيدُ أَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ فِي حَيَاةِ الكِنيسةِ لَنْ تَتَوَقَّفَ أَبَدًا.

٣ - التَّعْلِيمُ اللّاهُوتِيُّ وَالرُوحِيُّ: سِرُّ الإِفخارستيَّا

تُسَمِّيهِ أَيْضًا الكِنيسةُ سِرُّ الأَسْرَارِ، لِأَنَّهَا تَعْتَبِرُهُ مَنبَعَ الحَيَاةِ المَسِيحِيَّةِ وَذُرْوَتَهَا. فَالرَّبُّ يَسوعُ فِي اللَيْلَةِ الَّتِي قَبْلَ صَلْبِهِ وَمَوْتِهِ، جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَبَعْمَلٍ لَهُ دَلَالَةً رَمَازِيَّةً كَبِيرَةً، أَخَذَ الحُبْزَ بِيَدَيْهِ وَشَكَرَ اللهُ أَبَاهُ، بَارَكَهُ وَسَبَّحَهُ، ثُمَّ كَسَرَ الحُبْزَ وَأَعْطَاهُ هُمْ قَائِلًا: خُذُوا كُلُّوا هَذَا هُوَ جَسَدِي. فَالحُبْزُ المَكْسُورُ هُوَ جَسَدُهُ الَّذِي سَيَبْذُلُهُ عَلَى الصَّلِيبِ لِأَجْلِ خِلاصِ العَالَمِ. ثُمَّ عَلَى الكَأْسِ أَيْضًا بَارَكَ وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ لِيَشْرَبُوا مِنْ كَأْسِهِ، فَيَشْرَبُوا هُمْ أَيْضًا بِدَمِهِ المَسْفُوكِ لِأَجْلِهِمْ وَلِأَجْلِ العَالَمِ. وَبَعْدَ هَذَا أَوْصَاهُمْ أَنْ يَصْنَعُوا هَذَا لِذِكْرِهِ. وَهِيَ الكِنيسةُ تُحْتَفِظُ إِلَى اليَوْمِ بِهَذِهِ الوَدِيعَةِ، الهَدِيَّةِ الكَبِيرَةِ، أَنْ تَجْتَمَعَ مِنْ جَدِيدٍ، وَيَسوعُ القَائِمُ مِنَ المَوْتِ حَاضِرٌ بِرُوحِهِ فِي وَسْطِهَا، وَهُوَ بِشَخْصِ الكَاهِنِ يَكْسِرُ الحُبْزَ وَيُقَدِّمُ الكَأْسَ لِكِي يَتَنَاوَلَ المَؤْمِنُونَ جَسَدَهُ وَدَمَهُ وَيَتَّحِدُوا بِهِ.

إنَّ هذا الاحتفالَ هو أساسُ الكنيسة، وهو يبنينا. ففي كلِّ مرَّةٍ نَجتمعُ في القُدَّاسِ يَضُمُّنا الربُّ يسوع إلى جسده فنصيرَ كنيسته. في القُدَّاسِ يدعو الكاهنُ الرُّوحَ القُدَّسَ على القرايينِ وعلى الجماعة، فنحنُ نؤمنُ أنه كما يُحوَّلُ رُوحُ الله الخبزَ إلى جسده المسيح والخبزُ إلى دمه، كذلك الجماعة الحاضرةُ تتحوَّلُ إلى جسده يسوع الكَنسِيِّ. مِن هُنَا تأخُذُ بعضُ الأمورِ في القُدَّاسِ بُعدًا جمليًّا. يتبادَلُ المؤمنونَ السَّلَامَ مع بعضهم علامةً للأخوةِ الجديدة التي تجمعهم، وهم أصبحوا عائلةً واحدةً، شعبُ الله. ويقفون جميعاً يتلون صلاةَ الأبناء، مع المسيح ابنِ الله الوحيد، فهم أصبحوا كلُّهم أبناءً له.

كما أنه أساسُ حياتنا، فنحنُ نأتي إلى القُدَّاسِ كلَّ يومٍ أحد، حاملينَ معنا كلَّ ما عشناه خلالَ الأسبوعِ، وكلَّ ما عملناه مِن خيرٍ وما احتملناه باسمِ المحبة، فنقدِّمُه هديةً إلى الربِّ، وهو يَضُمُّها إلى تقدمةِ ابنه التي تمَّت على الصليب، والتي هي حاضرةٌ في القُدَّاسِ، فتصبحُ تقدمةُ المؤمنينَ مع تقدمةِ المسيح قُرْبَانًا مُرضيًّا لله الأب. ثم يُقدِّمُ اللهُ إلينا بدوره الهديةَ الأسمى، الغذاءَ الروحيَّ، جسده المسيح ودمه. إنَّ هذا الخبزَ الإفخارستيَّ غذاءٌ مهمٌّ للمؤمنِ بحمله زادًا في مسيرة إيمانه. وهو يمشي في قلبِ العالمِ ويتقدَّمُ في نُموه الروحيِّ، يتناولُ منه ليكونَ له مقويًّا في مواجهةِ مُختلفِ تحدياتِ الحياة.

توصي الكنيسةُ بالقُدَّاسِ في كلِّ يومٍ أحدٍ وعيدٍ مهمٍّ، فهذا واجبٌ ومفيدٌ لكلِّ مؤمنٍ. علماً أنَّ بعضَ المؤمنينَ يلتزمونَ القُدَّاسَ يوميًّا وقد صارَ ركيزةَ حياتهم الروحية.

٤ - للقراءة والتأمل: قراءة من القديس إيريناوس (+ ٢٠٢)

الإفخارستيا عربونُ القيامة

الربُّ اشترانا بدمه، على حدِّ قولِ الرسول: الذي لنا فيه الفداء، بدمه مغفرةُ الزلاتِ. وإننا أعضاءه، نتغذى من المخلوقات، وهو نفسه يُعطينا المخلوقات، فيطلعُ شمسُه ويسكبُ غيَّته كما يشاء. إنَّ تلكَ الكأسَ المخلوقةُ هي دمه المهرقُ الذي يُغذي دمنًا، وذلكَ الخبزُ المخلوقُ هو جسده الذي يُغذي أجسادنا.

فمتى تقبلُ الكأسَ الممزوجةَ والخبزُ المكسورَ كلمةَ الله، تُصبحُ إفخارستيا أي دم المسيح وجسده، منها يتغذى، وبها يقومُ جسدنا وجوهرُ كياننا. كيفَ يَنكِرُ قومٌ أن يكونَ الجسدُ جديرًا بعبطيَّةِ الله التي هي الحياةُ الأبدية، ذلكَ الجسدُ الذي تغذى بدم المسيح وجسده، وصارَ عضوًا للمسيح؟ وكما يقولُ بولس الرسول لأهلِ أفسس: إننا أعضاءُ جسده مِن لحمه ومن عظامه. فلا يقول ذلكَ عن إنسانٍ روحيٍّ غيرِ منظور: فإنَّ الروحَ لا لحمَ له ولا عظام، بل عن كيانٍ إنسانٍ حقيقيٍّ مِن لحمٍ وعصبٍ وعظام، يتغذى من كأسٍ هي دم المسيح، ومن خبزٍ هو جسدُ المسيح.

وكما أنّ جذع الكرمّة يُعرّسُ في الأرض فيؤتي ثمرةً في حينه، وحبّة الحنطة تقع في الأرض وتموتُ فتنبُتُ حباتٍ كثيرة، بروح الله حاوي الجميع وبحكمة الله يصيران حينئذٍ في خدمة الإنسان، وحين يقبلان كلمة الله يُصبحان إفخارستيا، أي جسد المسيح ودمه؛ كذلك أجسادنا التي تتغذى به، ولو دُفنت في الأرض وماتت فيها، فستقومُ في حينها، بقوة كلمة الله، إلى مجد الآب الذي يمنح المائت اللاموت، ويُنعِم على الفاسد باللافساد. لأنّ قوّة الله تكملُ في الوهن، لأنّ نتفخ ونفتخر على الله، كأنّ الحياة منّا، جاحدين جميله علينا، بل لتتعلّم من الاختيار أن البقاء في الخلود هو من الله، لا من طبعنا. فلا نضلّ في ما هو من طبع الله، ولا نجهل ما هو من طبعنا.

(ضدّ الهرطقات ٥، ٢، ٢-٣)

